

المحاضرة رقم 03

أدب الرحلة في النثر الجزائري الحديث

1- مفهوم أدب الرحلة:

يعد أدب الرحلات من المواضيع التي استحوذت على اهتمام كثير من الكتاب، والفلاسفة، ورجال الدين، والعلماء بشتى مشاربهم. ويكمن سر الاهتمام به في معالجة قضية حب التطلع، والفضول، ونزعة المقارنات التي تسيطر على العقل البشري، وحب المعرفة، والتطلع إلى الكشف عن أسرار الكون برا، وبحرا، وجوا. والانفتاح على ثقافات الشعوب بحمولتها العقيدية والسلوكية. «إن تاريخ الإنسان إنما هو تاريخ لمحاولاته التعرف ثم السيطرة على العالم الخارجي من حوله، وقد ناضل أولا القوى الحيوانية التي تحول بينه وبين هذه السيطرة، ثم أخذ يناضل القوى الإنسانية، فتكونت القبيلة ثم تكونت الأمة، واندفعت من إقليمها إلى الأقاليم المجاورة تكتشف أفاقا جديدة»⁽¹⁾. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، لكون الإنسان مفطورا على حب الاستكشاف. «وكل هذه الرحلات بدأت ضيقة، ثم اتسعت مع مر الزمن. فالإنسان ولد راحلا، وإن أعجزته الرحلة، تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال، ونجد ذلك مبثوثا في الأساطير الأولى، كما نجده ماثلا في الحروب والفتوح القديمة»⁽²⁾

ويتفق جل الدارسين على كون أدب الرحلات يعتمد أساسا على كشف صورة الآخر، «وهو أدب يدخل في درس الصورولوجية أي دراسة صورة شعب لشعب آخر»⁽³⁾. وهو من

(1) شوقي ضيف: الرحلات. ط4. دار المعارف. مصر ص7.

(2) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(3) سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة. دار الكتاب اللبناني. ط1. 1985. ص98.

خلال هذه الكيفية في تناول حالات الشعوب الأخرى، يتتبع «عادات، وتقاليد وتأثيرات إقليمية»⁽¹⁾.

وقد حاول مختلف الرحالة عبر مختلف أنحاء العالم أن يصوروا ما شاهدوه، وما وقعت عليه عيونهم، وكلُّ راح يصور من زاوية نظر معينة. وقد كان للعرب شأن في ذلك، وقد عرفوا «كتب التقاويم والبلدان منذ المراحل الأولى للتأليف. ووجهوا هذه الكتب وجهات جغرافية بحثة أحيانا، ومطعمة بالأعلام والأشعار أحيانا. كما خصوا مؤلفاتهم في رحلة عامة وصفوا فيها ما يرون ومن يرون. أو جعلوها عامة لأشهر الأمصار. وهم في كثير من الأحيان جعلوا كتبهم تأخذ طابعا فنيا أدبيا تاريخيا جغرافيا، حتى غدت أشبه بالموسوعة الثقافية. وفي هذه الحال يضعف التصوير الجغرافي، ويكثر التعريف بالأعلام، وبوصف المدارس والمساجد. ولكنهم لم يحافظوا على جمالية الأسلوب الفني غالبا، فنراهم يهتمون بطريقة العرض وأسلوب التشويق. وهذا كله ينقص من عملية الموضوع.»⁽²⁾

2- نشأة أدب الرحلة في الأدب العربي:

نشأ أدب الرحلة في الأدب العربي عن طريق سرد وقائع حدثت أثناء الرحلة التي كان يقوم بها العرب من مكان إلى آخر، ومن بلد إلى آخر طلبا للتجارة، أو طلبا العلم، أو الفرار بالنفس من بطش ما... وكان دأب الكتاب والفلاسفة، ورجال الدين والعلم يعتمدون أساليب مختلفة في تدوين ما حدث لهم، «كما أن هناك أعلاما قاموا برحلاتهم، وسجلوا منظوراتهم بدقة، غير أن كتبهم لم تسلم من الضياع. وبعضهم دونوا مذكراتهم في رحلاتهم، من غير أن تكون الرحلة سببا في صناعة الكتاب؛ بأن تكون رحلاتهم لأسباب اجتماعية، أو في طلب العلم، أو لاضطهاد مذهبي. ومن أشرف مؤلفاتهم: (آثار البلاد وأخبار العباد) للقزويني، (صورة الأرض) لابن حوقل، (معجم البلدان) لياقوت الحموي، (صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز) لابن محاور، (خريدة العجائب وفريدة الغرائب) لابن الوردي. واشتهر هذا النوع من التأليف في العصور المتأخرة، من

(1) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

(2) محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب. الجزء 1. ط 21. دار الكتب العلمية بيروت 1999. ص 55

ذلك: (العقد المنظوم في رحلة الروم) لمحمد بن محمد الحموي الدمشقي (ت 1033هـ)،
و(المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية) ليحيى بن أبي الصفا المحاسني (1053هـ)، و(الزهر
البسام في فضائل الشام) لعبد الله الأفيوني (ت 1154هـ)»⁽¹⁾

ولقد تعددت الجوانب التي استحوذت على عقول الرحالة، فراحوا يصورون كل ما يلفت
انتباههم، من العمران والمناخ، والعادات والتقاليد، وغير ذلك... فيحدثنا ابن جبیر (538هـ-
614هـ) الشاطبي الأندلسي، الذي قام بثلاث رحلات عن كثير من الأمور التي رآها في مسيرته.
وقد قام بوصف كثير من الأشياء التي رآها وقابلها، منها أهوال السفر على البحر والرعب الذي
يحدثه في نفس الراكب، وذكر مختلف المنشآت الحضارية التي رآها عن قرب؛ كالمساجد
والقصور والمآذن، والمنارات، والقبور. ففي وصف مناقب الاسكندرية يقول: «ومن مناقب هذا
البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطب
والتعب، يفدون من المناطق النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه ومدرسا يعلمه الفن
الذي يريد تعلمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله. واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطائرين
حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانا لعلاج من
مرض منهم، ووكّل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في
مصالحتهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء.»⁽²⁾

ولا مناص من الحديث عن ابن بطوطة الرحالة الذي جاب أقطار الأرض، وعرف أسرار
المدائن، وثقافات وعادات وتقاليد الشعوب عن طريق السفر، والتنقل. ويروي رحلته من طنجة
قائلا: «كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد
عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمدا حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل
الصلاة والسلام. منفردا عن رفيق آنس بصحبته، وراكب أكون في جملته، لباعث على النفس
شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم. فحزمت أمري على هجر

⁽¹⁾ محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب. الجزء 1. ط 21. دار الكتب العلمية بيروت 1999. ص 55

⁽²⁾ رحلة ابن جبیر. دار صادر. بيروت ص 15.

الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور. وكان والداي بقاء الحياة فتحملت لبعدهما وصبا، ولقيت كما لقيا من الفراق نصبا وسني يومئذ اثنتان وعشرون سنة.⁽¹⁾ وعلى الرغم من لوعة الفراق التي يعاني منها الرحالة إلا أن لغة التحدي تبدو جلية في إصرارهم على الترك والتنقل، وتعدد الأغراض في ذلك، من حج، وطلب علم، وطلب رزق،... ويصف ابن بطوطة وصوله إلى مدينة تلمسان حين كان سلطانها أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان. ويذكر في ذلك علماء، ووجهاء الناس الذين رأهم؛ إذ يذكر رسولا ملك إفريقية السلطان أبي يحيى، وهما قاضي الأنكحة في تونس، أبو عبد الله الفزاوي، والشيخ أبو عبد الله محمد القرشي الزبيدي. وقد خرج الرجلان بعد وصول ابن بطوطة إلى هناك فأشار بعض الإخوان بمرافقتهم، فأدركهما بمدينة مليانة. وقد مات القاضي بعد أيام معدودات هناك.⁽²⁾ ومن خلال هذا يتضح حرص الرحالة هنا على ملاقات مشايخ العلم، وما يفقه فيه، فيعزم على الرحيل وراءهما طلبا للقاء.

3- أدب الرحلة في النثر الجزائري:

لم تكن منطقة المغرب العربي بعيدة عن سلوك الرحلة الذي ميز منطقة المشرق العربي. فقد ظل كثير من العلماء، والمشايخ، وطلاب العلم، والتجار، يضربون في مناكب الأرض من المغرب إلى المشرق، أو من المشرق حتى الأندلس، أو إلى العمق الإفريقي. وكان في المغرب العربي كثير من العلماء يتلهفون إلى الحج، وزيارة البقاع المقدسة. وحتى عندما جاء المستعمر الفرنسي، وضيق الخناق على العلماء، كان التفكير يزداد حين بعد حين من أجل الاحتكاك أكثر بعلماء المشرق من أجل الاستفادة من خبرتهم وعلمهم، وتنسيق الجهود من أجل النهوض بالأمة الإسلامية.

⁽¹⁾ ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. الجزء 1. تحقيق: محمد عبد المنعم العريان. دار

إحياء العلوم. ط1. 1987.. ص33.

⁽²⁾ المرجع نفسه. ص34.

وقد وجد كثير من الرحالة الجزائريين في عصر الأتراك، ومن أشهر «الرحالة الجزائريين في تلك الفترة: (أحمد بن عمار) و(محمد بوراس المعسكري) و (المشرفي)، كذلك الورتلاني الذي جمع في رحلته بين الأدب والتاريخ وأسماءها: (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، وقد عرض تقاليد البيئة الجزائرية كما تحدث عن التبشير وركز على التصوف باعتباره متصوفاً⁽¹⁾. وهكذا اشتغل علماء، وكتاب الجزائر على تشكيل النصوص المكتوبة حول الرحلة، ومراعاة الجانب الفني فيها على قدر ما كان معهودا، وتأثيرها بالجانب التاريخي. وعليه معظم ما كتب هو أشبه بالسرد والقص.

و«رغم أننا لم نعثر في القرن العشرين خصوصا على رحلة مستقلة خاصة بالحج يكون هو غايتها ومقصدها في منطقتها فإننا نجد لها جزئية في رحلات محدودة أولها: رحلة (الغسيري) العامة " عدت من الشرق " حيث طرأت له فكرة الحج وهو في القاهرة عندما وصلها من الجزائر سنة 1953 في وفد من (الكشافة الإسلامية) سنة 1953 عبر (تونس) و(ليبيا)، ولم تلبث حتى وجدت طريقها إلى التنفيذ خاصة بعد الدعوة من السعودية إلى (محمد البشير الإبراهيمي) ومعه (الغسيري) وغيره أيضا، كي يكونوا ضيوفا على الحكومة السعودية أيام الحج⁽²⁾.

ومن الرحالة الجزائريين الذين برزوا بشكل لافت للانتباه نجد الرحالة (عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري 1107هـ. وعاش ما يقارب التسعين سنة. من سكان الجزائر العاصمة، من أسرة بسيطة تعمل في الدباغة)، الذي ترك لنا بعض المؤلفات منها: رحلته المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال. وقد قام بتحقيقه. المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله. وقد أسهب في وصف المشايخ، والأماكن، وغيرها من الموجودات. يقول: «وفي هذه الساعة كنا على ظهر البحر، قريبا من غرناطة، وكان عاشر خروجنا من الجزائر، والثنين حادي عشرتنا. ويوم الأربعاء سادس عشر فبراير ألقينا المراسي بجبل طارق، ونحن على وجل، إذا به خرج لنا راييس المرسه فسألنا، فلما أخبره راييسنا افرانصيص وأنه في كروة أهل الجزائر: الحاج عبد القادر بن كرشال

⁽¹⁾ عبد الله ركيبي: تطور النثر الجزائري الحديث. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ص49.

⁽²⁾ عمر بن قينة: الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية. منشورات اتحاد الكتاب العرب 1999. ص23 - 24.

وأبي صابر التلمساني وحاج عبد السلام السفاقسي، قال له أبعد المراكب ولا ينزل أحد إلى البر، لما كان في أهل الجزائر من وبي [ويقصد وباء]، ولم يدر بأن أحد تجاره مضروب بها راقدا. فخرجنا إلى الموضع الذي أمرنا. وبقينا هناك بقية يومنا والخميس.⁽¹⁾ ويتضح من خلال هذا النص بعض الأحداث التاريخية التي يمكن أن يستعين المؤرخ بمثل هذه النصوص للوصول إلى لب الحدث. فقد ذكر الوباء الذي حل بأهل الجزائر. وأنهكهم في تلك الفترة.

وفي خضم الرحلة يحرص ابن حمادوش على زيارة الأماكن الخاصة بالأحياء والأموات، من قصور وقبور. وفي ذلك يصف زيارته لضريح الشيخ الريفي: «وفي يوم الخميس الموالي له، ذهبت لزيارة سيدي علي الريف راجلا، فقطعت واد الكيتان إلى أنصاف فخذي، وهو واد عظيم من أفضل المياه، فبلغت له ضحاء، فلقيني خادمه وسلم علي وأدخلني قبة قبر الشيخ فأجلسني عنده وذهب. فبقيت/إلى قرب الزوال، إذا بعبد الجليل بن عبد اللطيف، الذي كان تولى أمور الحاج عبد القادر بعد موته في المركب لقراة بينهما، قدم علي راكبا، فدخل القبة، فوجدني جالسا فسلم علي وجلس زمانا يسيرا، إذا بخادمه المذكور، واسمه سيدي علي الريف، دخل فسلم علينا وسلمنا عليه وقبلنا يده لما كنا نعتقد فيه. وكان رجلا حلوا كأنه أحيانا يصادف بقوله ما يضمه الزائر، وعقد بيني وبينه عهدا ولم أدر ما ذاك. فخرجنا وانصرفنا مفترقين، كما قدمنا.»⁽²⁾

ويقدم الباحث أبو القاسم سعد الله في كتابه (تجارب في الأدب والرحلة) تصوره لقضية الرحلة في الأدب الجزائري قائلا: «والرحالة الجزائريون قليلون إذا قيسوا بالرحالة المغاربة. وأقل من القليل أولئك الذين اتجهوا منهم نحو المغرب بدل المشرق. وإذا كان القرن الثامن عشر الميلادي قد ترك لنا رحلتين جزائريتين نحو المشرق، رحلة ابن عمار ورحلة الورتلاني، فإنه قد ترك لنا أيضا رحلة يتيمة نحو المغرب وهي رحلة ابن حمادوش هو أول جزائري يتوجه إلى

⁽¹⁾ عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري: رحلة ابن حمادوش الجزائري: المسماة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال. تحقيق: أبو القاسم سعد الله. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الجزائر 1983. ص 30

⁽²⁾ المصدر نفسه. ص 33

المغرب، فقد سبقه كثيرون كابن قنفذ والونشريسي والمقري ولحقه كثيرون كالأمير عبد القادر والمشرقي.⁽¹⁾

⁽¹⁾ أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر 1983. ص204.